



بثنية خليفة قاسم

كاتبة من البحرين

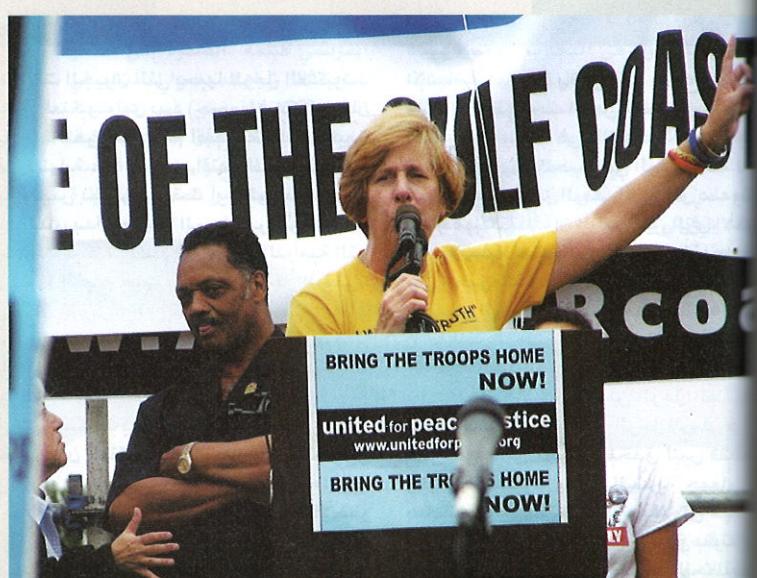
مؤسسات المجتمع المدني والتحول السياسي والتحديث

■ تلعب مؤسسات المجتمع المدني دوراً مهماً في عملية إحداث توازن في كيّنونة وبقاء المجتمعات بعد ما آلت إليه من وهن وتمزق نتيجة توغل يد الحكومة وتوحش البيروقراطية وفشل الأنظمة السياسية الحاكمة في احتواء مدخلات النظام وبالأخص متطلبات الجماهير، وعليه جاءت مؤسسات المجتمع المدني كردة فعل في محاولة منها لإنعاش المجتمعات ومساندة الحكومات في أداء مهامها.. وكان حري بالحكومات أن تجد جسور التعاون والعمل مع تلك المؤسسات، خدمة لمصالح شعوبها وأشراكتها في عملية التنمية والتحديث السياسي، بدلاً من التعامل معها من منطلق الواجهات الزائفة..

وبالعودـة إلى نشأة وتطور المجتمعات المدنـية في الفكر الغـربي، نستـشرف أنها واكـبت الفكر الليـبرالي منـذ انـطـلاقـته في القرـن السـابـع عشر المـيلـادي مـتأـثـرةً بـنظـريـات العـقد الـاجـتمـاعـيـ كـما عـبرـ عنـها المـفـكـر جـونـ لوـكـ فيـ كتابـاتهـ التيـ تمـضـختـ عنـ أنـ الإنسـانـ فيـ حـالـةـ الطـبـيـعـةـ كانـ يـعيشـ حـيـاةـ عـقـلـانـيـةـ وـرـشـيدـةـ، بـيـدـ أنـ الآـنـانـيـةـ جـعلـتـهـ يـفكـرـ فيـ حـيـاةـ أـفـضلـ مـاـ هوـ عـلـيـهـ، وـمـنـ ثـمـ قـرـرـ الأـفـرـادـ مجـتمـعـينـ أـنـ يـتـنـازـلـ فـيـهـ كـلـ مـنـهـ عـنـ الـحـقـ لـكـيـ يـشـكـلـوـاـ مـجـتمـعـاـ يـتـنـازـلـ فـيـهـ كـلـ مـنـهـ عـنـ الـحـقـ تـفسـيرـ قـانـونـ الطـبـيـعـةـ وـالـقـضـاءـ بـهـ وـتـنـفيـذهـ.

وـعـلـىـ ضـوءـ هـذـ العـقـدـ بـدـأـتـ بـوـاـكـيرـ المـجـتمـعـ المـدنـيـ فيـ الـبـرـوزـ وـالـتـشـكـلـ وـذـلـكـ لـتـمـتـ بـصـورـةـ أـفـضـلـ يـحقـقـ الـإـنـسـانـ الطـبـيـعـةـ (ـالـحـقـ فيـ الـحـيـاةـ، الـحـرـيـةـ وـالـتـلـمـلـكـ)، وـالـتـيـ اـعـتـبـرـتـ فـيـ بـعـدـ دـعـامـاتـ لـكـلـ الـمـدارـسـ وـالـحـقـولـ الـفـكـرـيـةـ وـانـ تـبـاـيـنـتـ فـيـ اـعـطـائـهـ الـأـوـلـويـاتـ لـذـلـكـ، فـالـمـدـرـسـةـ الـلـيـبـرـالـيـةـ مـثـلـاـ تـشـمـنـ الـفـردـ بـشـدـةـ وـتـجـعـلـهـ قـبـلـ الـمـجـتمـعـ، أـمـاـ الـمـدـرـسـةـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ فـانـهـ تـرـجـعـ لـلـشـعـبـ فـيـ كـلـ صـفـيـرـةـ وـكـبـيـرـةـ فـيـ حـكـمـ الشـعـبـ نـفـسـهـ بـنـفـسـهـ، كـمـ أـنـهـ تـعـلـيـ منـ شـانـ الـمـساـواـةـ وـعـلـيـهـ فـنـاطـقـ الـحـكـمـ عـنـ الـدـيـمـقـراـطـيـينـ هـوـ الـمـجـتمـعـ (ـحـكـمـ شـعـبـيـةـ)، أـمـاـ نـاطـقـ الـحـكـمـ عـنـ الـلـيـبـرـالـيـينـ فـهـوـ يـتـمـثـلـ فـيـ (ـحـكـمـ دـسـتـورـيـةـ مـقـيـدةـ).

أـمـاـ الـمـدـرـسـةـ الـفـوـضـوـيـةـ، فـقـدـ رـفـضـ رـفـضـاـ قـاطـعاـ كـلـ مـاـ هـوـ مـرـتـبـ ذـكـرـ بـالـسـلـطـةـ، بـاعـتـبـارـ أـنـ الـأـخـرـيـةـ شـرـ مـطـلـقـ وـمـؤـامـرـةـ مـسـتـمـرـةـ عـلـىـ الـأـفـرـادـ كـمـ يـعـرـفـهـاـ (ـبـاـكـونـونـ) فـالـسـلـطـةـ الـمـقـبـولـةـ لـدـيـهـمـ هـيـ السـلـطـةـ الـمـعـنـوـيـةـ، حـيـثـ الـكـلـ مـلـتـزـمـ بـهـ لـأـنـ السـلـطـةـ فـيـهـ لـأـنـ تـفـرـضـ نـفـسـهـ بـقـوـةـ مـادـيـةـ خـارـجـيـةـ..



أما بالنسبة للتفكير الإسلامي، فإن جدلاً واسعاً يدور داخل المجتمع الإسلامي حول موقف الإسلام من المجتمع المدني وما ينضوي تحت قبته من حرية تشكيل الأحزاب والجمعيات (ال个多ديـةـ)، إذ يرى البعض أنها تتـاجـرـ غـربـيـاـ وـمـؤـامـرـةـ صـهـيـونـيـةـ، الـهـدـفـ مـنـهـاـ تـمـزـيقـ الـأـمـةـ حتـىـ يـسـهـلـ عـلـيـهـمـ السـيـطـرـةـ عـلـيـهـاـ، وـيـسـتـنـدـ الـفـرـيقـ الـرافـضـ لـلـحـزـبـ وـتـعـدـيـةـ الـفـكـرـ إـلـىـ قـولـ اللهـ عـزـ وـجـلـ فـيـ مـحـكـمـ تنـزـيلـةـ، (ـوـاعـتـصـمـواـ بـحـبـ اللـهـ جـمـيعـاـ وـلـاـ قـرـفـقـواـ) (ـوـقـولـ رـسـوـلـ اللـهـ -ـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ -ـ (ـيـدـ اللـهـ مـعـ الـجـمـاعـةـ)).

ويـقـابـلـ هـذـاـ الرـايـ المـتـحـفـظـ وـالـمـتـشـدـدـ رـأـيـ آخرـ علىـ طـرـفـ نـقـيـضـ، يـرـىـ أنـ التـعـدـيـةـ فـيـ الـمـجـتمـعـ إنـماـ هيـ تـجـسـيدـ عـصـرـيـ لـمـبـداـ الـأـمـرـ بـالـمـعـرـوفـ وـالـنـهـيـ عنـ الـمـنـكـرـ، إـذـ هوـ يـتـيحـ لـلـأـقـلـيـةـ أـنـ تـعـبـرـ عـنـ رـأـيـهـاـ وـأـنـ تـدـافـعـ عـنـ مـصـالـحـهـاـ، وـقـدـ سـئـلـ الشـيـخـ يـوسـفـ الـقرـضاـويـ عـنـ الـمـوـقـفـ الـشـرـعـيـ مـنـ تـعـدـ الـأـحـزـابـ فـيـ الـمـجـتمـعـ الـإـسـلـامـيـ، فـقـالـ: (ـرـأـيـ أـنـهـ لـاـ يـوـجـدـ مـانـعـ شـرـعـيـ فـيـ وـجـودـ أـكـثـرـ مـنـ حـزـبـ سـيـاسـيـ دـاـخـلـ الـدـوـلـةـ الـإـسـلـامـيـةـ، إـذـ الـمـنـعـ الـشـرـعـيـ يـحـتـاجـ إـلـىـ نـصـ وـلـاـ نـصـ، بـلـ إـنـ ذـلـكـ التـعـدـيـ قدـ يـكـوـنـ ضـرـورةـ فـيـ هـذـاـ الـعـصـرـ، لـأـنـهـ يـمـثـلـ صـمـامـ أـمـانـ مـنـ استـبـادـ فـرـدـ أوـ فـتـةـ مـعـيـنهـ بـالـحـكـمـ وـتـسـطـلـهـاـ عـلـىـ سـافـرـ النـاسـ).

وـأـسـطـبعـ القـوـلـ مـنـ خـلـالـ قـرـاءـاتـيـ لـكـثـرـ تـبـاـيـنـ وـجـهـاتـ الـنـظـرـ الـإـسـلـامـيـةـ حـوـلـ فـكـرـ تـعـدـيـةـ الـرـأـيـ وـاـخـلـافـهـاـ، إـنـ ذـلـكـ أـكـبـرـ دـلـيـلـ عـلـىـ اـحـتـرـامـ الـإـسـلـامـ لـلـرـأـيـ وـالـرـأـيـ الـآـخـرـ.

عـودـاـ عـلـىـ بـدـءـ، إـنـ مـؤـسـسـاتـ الـمـجـتمـعـ الـمـدنـيـ إنـماـ اـنـشـتـتـ لـغـایـاتـ بـعـيـدةـ كـلـ الـبـعـدـ عـنـ عـاـمـ الـرـبـحـيـةـ كـمـ أـنـهـ تـعـمـلـ فـيـ إـطـارـ مـنـفـصـلـ عـنـ الـجـهـةـ الـرـسـمـيـةـ فـيـ الـبـلـادـ مـاـ يـحـكـلـهـاـ التـحرـكـ بـاـرـيـحـيـةـ فـيـ مـراـقبـةـ أـدـاءـ الـمـؤـسـسـاتـ الـرـسـمـيـةـ، تـبـقـيـ الـاـشـكـالـيـةـ الـأـسـاسـ الـتـيـ تـوـاجـهـ تـلـكـ الـمـؤـسـسـاتـ هـيـ إـشـكـالـيـةـ الـتـموـيلـ، وـالـخـوـفـ كـلـ الـخـوـفـ أـنـ تـقـعـ تـلـكـ الـمـؤـسـسـاتـ فـرـيـسـةـ لـلـدـعـمـ الـخـارـجـيـ، وـقـدـ أـيـقـنـتـ الـحـكـومـاتـ الـتـيـ تـشـكـلـ تـلـكـ الـمـؤـسـسـاتـ تـحـديـاـ سـاهـرـاـ لـاستـبـادـيـتهاـ وـانـفـرـادـهـاـ فـيـ صـنـعـ الـقـرـارـ مـدـىـ خـطـوـةـ عـاـمـ الـتـموـيلـ وـالـدـعـمـ الـخـارـجـيـ فـيـ سـمـعـةـ وـلـوـاءـ مـؤـسـسـاتـ الـمـجـتمـعـ الـمـدنـيـ، فـشـرـعـتـ فـيـ الـلـعـبـ بـأـورـاقـ مـخـلـفـةـ بـاسـمـ الـوـطـنـ!ـ حـتـىـ اـسـتـطـعـتـ الـتـمـوـيـهـ تـارـةـ وـذـرـ الـرـمـادـ فـيـ الـعـيـونـ تـارـةـ أـخـرـيـةـ.

جـديـرـ بـالـذـكـرـ، أـنـ نـشوـءـ تـلـكـ الـمـؤـسـسـاتـ يـعـدـ خطـوـةـ إـيجـابـيـةـ نحوـ أـجـوـاءـ جـديـدةـ فـيـ الـمـجـتمـعـ، تـؤـدـيـ بـلـاشـكـ إـلـىـ حـرـاكـ اـجـتمـاعـيـ، تـمـهـدـ لـتـأـسـيسـ وـعـيـ خـصـوصـيـةـ فـيـ الـوـعـيـ الـاجـتمـاعـيـ، تـمـهـدـ لـتـأـسـيسـ وـعـيـ جـديـدـ. وـمـنـ الـطـبـيـعـيـ أـنـ يـقـابـلـ تـلـكـ الـتـحـوـلـاتـ تـطـوـرـاتـ فـيـ الـمـجـتمـعـاتـ الـعـرـبـيـةـ تـيـنـيـةـ ذـلـكـ الـحـرـاكـ، وـانـ فـسـرـهـ الـبـعـضـ يـانـهـ هـيـجـانـ وـلـيـسـ حـرـاكـ، إـلـاـ أـنـ ذـلـكـ لـأـيـمـنـ قـيـامـ بـنـيـ اـقـتصـادـيـةـ جـديـدـةـ، وـسـيـاسـاتـ نـحـوـ تـمـكـينـ الـمـرـأـةـ، كـمـ أـخـدـتـ تـتـكـرـسـ فـيـ الـوـعـيـ الـاجـتمـاعـيـ أهمـيـةـ الـتـنـظـيمـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ..

وـتـوكـدـ الـدـرـاسـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ أـنـ السـمـةـ الـرـئـيـسـةـ الـتـيـ تـميـزـ الـمـجـتمـعـاتـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ بـدـأـةـ الـقـرـنـ الـحـادـيـ وـالـعـشـرـينـ هـيـ الـانـحـاطـاطـ الشـامـلـ، باـسـتـشـاءـ تـلـكـ الـدـوـلـ الـتـيـ تـتـخـذـ مـنـ مـؤـسـسـاتـ الـمـجـتمـعـ الـمـدنـيـ خـطـ دـفـاعـ دونـ السـقـوطـ فـيـ هـوـةـ الـدـوـلـ الـمـتـخـلـفـةـ، وـسـوـاءـ اـعـتـرـفـاـنـ مـؤـسـسـاتـ الـمـجـتمـعـ الـمـدنـيـ مـدـخـلـاـ لـتـكـرـيـسـ الـدـيمـقـراـطـيـاتـ فـيـ الـمـجـتمـعـاتـ الـعـرـبـيـةـ قـشـةـ نـجـاةـ، فـانـ وـجـودـهـاـ أـضـحـيـ منـ الـأـهمـيـةـ بـمـكـانـ بـحـيثـ لـأـيـقـيـ بهـ خـارـجـ إـطـارـ الـمـتـعـارـفـ بـهـ ■